الفصل الثالث

موقف الحضارتين "الإسلامية، والغربية" من التعددية والتسامح

الفصل الثالث

موقف الحضارتين "الإسلامية، والغربية" من التعددية والتسامح

وصلا بما سبق ذكره فى فضل الحضارة الإسلامية وازدهارها فى القرون الوسطى، وإسهامها بفاعلية فى إيقاظ وصحوة أوروبا، والأخذ بها إلى عصر النهضة، مؤكدة بذلك على أن **الاختلاف والتنوع ضرورة** لإتمام عملية التفاعل، والتمازج، والتكامل، وأن **الحوار** والانفتاح على الآخر، دليل على ضرورة التعددية، من أجل إثراء الحياة الإنسانية، كذلك ما تأكد من **سماحة الدين الإسلامى** بسماحة لأهل الذمة - وخاصة فى حركة **الترجمة** - بالعمل المتكامل كجزء من النشاط الحضارى الإسلامى، إلا أنه فى المقابل على الجانب الآخر نجد **النقيض تماماً بالنسبة للحضارة الغربية**.

إن الرؤية الإسلامية العقدية والفكرية - والتى تجسدت فى تاريخنا الحضارى واقعاً معاشاً عبر القرون - ترى أن الأصل والسُنة والقاعدة والقانون هو التنوع والتمايز والاختلاف، **فالواحدية والأحدية فقط للذات الإلهية**، ومَنْ عدا وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والاختلاف، ذلك هو القانون التكوينى الذى يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات، فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وفى الأفكار والفلسفات والأيدلوجيات وفى الشرائع والملل والديانات.

لقد بدأت الإنسانية أمة - جماعة - واحدة ثم صارت شعوباً وقبائل ليتم بينها التسابق والتدافع والتعارف، قال الله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**...﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذه التعددية هى سُنة كونية وآية من آيات الله سبحانه وتعالى فى خلقه ومع سُنة وقانون **التعددية فى الشعوب والأمم والقبائل**؛ قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا**

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ترى الصورة الإسلامية للعالم أن الأصل هو **تنوع الإنسانية فى الألسنة واللغات، ومن ثم فى القوميات** وكذلك فى **الأجناس والألوان**، وهو تنوع يبلغ مرتبة (الآية) من آيات الله، قال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾** [الروم: ٢٢]، كذلك لا ينكر الإسلام بل يؤكد على **التنوع والتمايز والاختلاف فى الشرائع والملل الدينية وفى المناهج والثقافات والحضارات** قال تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾** [هود: ١١٨].

وفى تفسير المفسرين لآيتى سورة هود، يقولون: **وللاختلاف خلقهم**، فالتنوع والاختلاف من علل وحكم الخلق، وذلك حتى يكون هناك استباق وتدافع وتنافس على طريق الصلاح والإصلاح والخيرات، ولذلك كانت الرؤية الإسلامية للمستقبل وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، على أنه مستقبل تتعدد فيه الملل والشرائع والديانات، **وظهور الإسلام** على الدين كله هو ظهور **الحلول الإسلامية** وليس وراثة الإسلام لسائر الشرائع والديانات.

ولم تقف الصورة الإسلامية للوجود بعوالمه المختلفة القائمة على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف والتعارف والتعايش عند الموقف النظرى، بل وصلت إلى حد العدل والإنصاف لهذا (الآخر)، على اختلاف ألوان هذا (الآخر)، فالإيمان الإسلامى وحده هو الذى لا يكتمل إلا إذا آمن أصحابه بكل النبوات والرسالات وكتب وشرائع هذه النبوات والرسالات، وأن يُمَكنْ المسلمون أهل تلك الشرائع والملل من إقامة عقائدهم المخالفة للإسلام بل والتى تنكر

وتجحد الإسلام، قال تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...**﴾ [البقرة ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ**﴾ [الأعلى:١٨، ١٩]

فالإسلام وحده هو الذى **لا يقف** اعترافه بـ(الآخر) عند (الآخر) الذى يعترف بالإسلام، وليس فى (الآخر) الدينى مَنْ يعترف بالإسلام دينا وبنبى الإسلام رسولاً، وبقرآن الإسلام وحياً إلهياً، وإنما يتفرد الإسلام بالاعتراف حتى بـ(الآخر) الذى يجحده وينكره.(٤٦: ١٧- ٢٢).

إن المسلمين وحضارتهم ودولتهم وتاريخهم وفقه معاملاتهم، لم يقفوا عند الصورة القرآنية التى صنعت وصبغت الثقافة الإسلامية تجاه أنبياء اليهودية وشريعتها وكتابها، وإنما وضعوها فى الممارسة والتطبيق منذ عصر النبوة وعبر تاريخ حضارة الإسلام.

ففى دستور دولة النبوة – الدولة الإسلامية الأولى – التى قامت بالمدينة المنورة عقب هجرة الرسول ﷺ من مكة إليها سن [١هـ/ ٦٢٢م] نجد مواد هذا الدستور تبلغ اثنتين وخمسين مادة...، ونجد الحديث فيها عن اليهود فى أربع عشرة مادة...، وفى هذه المواد تقنين لدمج اليهود فى رعية الدولة واعتبارهم **أمة مع المؤمنين** المهاجرين والأنصار، وتقنين المساواة بينهم وبين المؤمنين فى الحقوق والواجبات، مع تقنين حقهم الكامل فى الاعتقاد الدينى الذى يختلفون فيه مع الإسلام والمسلمين...، فنقرأ فى هذه المواد الدستورية **أرقى صور التقنين للاعتراف بـ(الآخر)، ومساواة الأقلية للأغلبية، وتقرير التعددية الدينية فى رعية الدولة الواحدة**... نقرأ:

"... ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم...، مواليهم وأنفسهم...، وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا مَنْ ظلم وإثم، فإنه لا يوتغ (يُهلك) إلا

نفسه وأهل بيته...، ومن تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة غير مظلومين ولا متناصر عليهم..، ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين..، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم...، وأن بينهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..."(*).

بهذه الصحيفة الشديدة الإشراق والتألق، فتح الإسلام كتاب العلاقة بـ(الآخر) اليهودى، عندما قننت الدولة الإسلامية الحرية الدينية، والتعددية الدينية، والمساواة فى حقوق المواطنة فى داخل الأمة الواحدة، والدولة الواحدة، وحتى بعد نقض اليهود العبرانيين لعهودهم مع رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية، وخيانتهم العظمى للمسلمين إبان ذروة الحصار والقتال فى غزوة الخندق – الأحزاب – وفى أشد اللحظات القتالية حرجاً، **خان اليهود** دولة الإسلام، **ونقضوا عهودهم مع المسلمين** وتعاونوا متآمرين مع جيش الشرك المحاصر للمسلمين فى المدينة المنورة، وعرضوا ثمار مزارع خيبر على قبائل الشرك كى تأتى فتقضى على دولة الإسلام، بل شهدوا –وهم أهل كتاب– أن الشرك والوثنية أصح وافضل من التوحيد، وفى ذلك نزل قوله سبحانه وتعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾** [النساء: ٥١] ومع كل هذه الخيانات والانتهاكات للعهود لم يغير المسلمون الموقف الإسلامى من (الآخر) اليهودى، لقد أمنّوا قاعدة الدولة الإسلامية بإجلاء الخونة عن هذه القاعدة، ثم تركوا أبواب المدن الإسلامية والولايات الإسلامية مفتوحة أمام اليهود، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم... فعادوا للعيش فى مدينة "القدس" عقب فتح المسلمين لها بعد أن كانوا مطرودين منها، وأحسنت إليهم الدولة الإسلامية على

(*) مجموعة الوثائق للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٧ – ٢١ جمعها وحققها د. محمد حميد الله، طبعة القاهرة، ١٩٥٦، نقلا عن: محمد عمارة، الإسلام والآخر، مرجع سابق ص ٢٨.

حين كان الاضطهاد واللعن والاحتقار والطرد والقتل من نصيبهم فى مختلف الحضارات والدول غير الإسلامية التى عاشوا فيها...، ولكن **النزعة العنصرية**، التى جعلتهم يحولون اليهودية عن روح الدين **الإلهى إلى "تسق فكرى عنصرى**، قد جعلتهم يرفضون (الآخر)، كل (الآخر) على مر تاريخهم الطويل، لقد انحرفوا باليهودية إلى العنصرية ثم أخذوا يتغذون من هذه **اليهودية التلمودية العنصرية** فغدوا النموذج الأول فى رفض كل الآخرين. (٤٦: ٢٧-٣٠).

وبالرغم من أن الحضارة الغربية، هى التى تروج للديمقراطية، والتسامح، وتتهم الإسلام بالعنف والجمود والإرهاب، وبات هذا يقينا فى ضوء ما أعلنه مفكرو الغرب فى أطروحاتهم، وأيضا ما ورد فى تصريحات حكامهم والمسئولين، إلا أنه تأكد بوضوح انتفاء اعتقاد الغرب بضرورة التعددية والتسامح وغيرها من القيم التى يروج لها ضمن إطار حقوق الإنسان، وخاصة مع الأديان الأخرى، ومن هنا كان الترويج للصدام والصراع، ورفض التسامح مع (الآخر) وخاصة لو كان هذا (الآخر) المسلمين، ولعل تصريح "هنتنجتون" بقوله: "إن حضارة الإسلام هى الوحيدة التى جعلت بقاء الغرب موضع شك، وقد فعل ذلك وتبين على الأقل مرتين"(*). وطبعا يقصد بذلك محاولة دخول المسلمين "فيينا بالنمسا"، إن حضارة الغرب العلمانية التى تنفى وجود الدين وترفض الالتزام بقيمه الخلقية، بحجة أنها تعوق التقدم، وتحد من الحرية، وهذا ما تمحورت حوله أطروحة "فوكوياما"، التى ترى فى الحضارة الغربية أفضل الحضارات، وآخرها، وعلى الرغم من اعتناقها الليبرالية الغربية والديمقراطية، إلا أن هذا لصالحها وليس لغيرها، لأنه لو تحقق لغيرها، فلن تكون لها السيطرة والهيمنة التى تبتغيها هذه الحضارة القائمة على الصراع والصدام، **ولا تؤمن بالندية، ولا التعددية وترفض التسامح**، أليس هنتنجتون هو القائل مؤخرا [نحن

(*) راجع صامونيل هنتنجتون – صدام الحضارات، ص٣٣٩.

لا نعرف مَنْ نحن، إلا إذا عرفنا نحن ضد مَنْ][*] مما يؤكد حتمية الصراع ورفض الندية والاستعلاء بالقوة والغطرسة، فوجود الغرب لا يتحقق إلا بالصدام والصراع مع عدو يختلقه ليناصبه العداء، ويهزمه ليحقق وجوده، ولذلك فهى رغم ترويجها للديمقراطية ترفض أن يسود العالم الإسلامى الديمقراطية، حتى لا يكون هناك جمهوريات إسلامية قوية، فهى تخاف الإسلام، وترفض أن يكون للمسلمين قوة، وجميعاً نرى ونسمع حقوق المسلمين الضائعة فى كل أنحاء العالم/ أهمها حق الوجود فى الحياة والإحساس بالأمن والسلام، اليوم فى فلسطين مذابح لإبادة المسلمين أصحاب الأرض، واستباحة دمائهم ومقدساتهم، وكذلك أفغانستان، والعراق والصومال، والبوسنة، وكوسوفا، والشيشان، وكشمير...، فجميعها دول إسلامية، ويكفى فى حروبهم أن تسمى (تطهير عرقى)، ولمواجهة هذا الدين سرعان ما تتجمع أوروبا لمحاربته، حتى على أرضها، فكان حلف شمال الأطلنطى، وأيضا خارج أرضها مثلما يحدث فى أفغانستان، فكان التحالف الغربى الأوروبى الأمريكى، بحجة محاربة الإرهاب الإسلامى، دون دليل على انتساب هذا الإرهاب فى أحداث ١١ سبتمبر للمسلمين، ولكنها أباطيل وافتراءات تُختلق، وتُنسب للمسلمين، كمبرر للانقضاض عليهم لإبادتهم، أو على أقل تقدير، لإضعافهم وإهدار ثرواتهم ومقدراتهم.

ويكفى الإشارة إلى أن المؤسسات والمنظمات العالمية صارت فى ضعف أمام الجبروت والاستعلاء بالقوة للغطرسة الأمريكية – باعتبارها القطب الأوحد بعد انتهاء الحرب الباردة، فهى التى تقود العالم وفق رغباتها، ولصالحها وعلى حساب الدول الأخرى، وخاصة الإسلامية، مما جعل **ازدواجية المعايير والكيل بمكيالين** هو أسلوبها الحاسم لإضعاف دور المؤسسات الدولية، فى تحقيق مهامها الإنسانية، مما يؤكد تماماً وبوضوح بالغ، **انتفاء التسامح والتعددية** من

(*) المرجع السابق، ص٣٧.

الحضارة الغربية خاصة فى حال تعاملها مع المسلمين، حتى تتمكن من إحكام قبضتها عليهم، بحرمانهم حقوقهم الإنسانية وإضعافهم وتحقيق السيطرة على ثرواتهم.

ولعل هذا يدفعنا لتساؤل، حقا أفصحت عنه وأجابت عليه السطور السابقة، ولكن الأمر فى حاجة إلى تحديد أدق ليتضح: **لماذا الإسلام عدوا؟ وما مظاهر هذا العداء؟**

باختصار لكى تتحدد الإجابة لابد من الرجوع إلى الماضى للبحث فى ذاكرة الغرب فى القرون السابقة وخاصة "الوسطى"، التى تعلن باختصار أنه ما كان للغرب أن ينهض إلا بفضل عظمة الحضارة الإسلامية، وما اتسمت به من **قوة وتسامح، وإيمان بالاختلاف والتنوع، من أجل التكامل والتمازج والتفاعل بهدف إثراء الحياة الإنسانية.**

إلا أن الغرب قابل هذا الفضل بالنكران والجحود والعدوان على المسلمين، لأنه **يخاف الإسلام فى حد ذاته**، فهو قوة عظيمة بمقوماته الذاتية، ومهما حاول الغرب إضعاف المسلمين، وهو فى سعى دائم حقيقى لإضعافهم، حتى يتحقق وجوده.

وكما وقفت **"الثقافة اللاهوتية"** الغربية إزاء (الآخر) موقف عدائى متوحش وخاصة إزاء (الآخر الإسلامى) فلم تكن **"الثقافة العلمانية"** الغربية أكثر إنصافاً من سابقتها، ولا أقل فى درجات الإنكار والتشويه، ومحاولات الاستئصال، لقد اتخذت هذه الثقافة الغربية فى جملتها الموقف **الاستئصالى** عبر تاريخها الوسيط والحديث والمعاصر حتى كتابة هذه السطور، فسار الغرب **الحضارى** على نهج الغرب **اللاهوتى فى ثقافة النفى والاستئصال، فنزعة المركزية الحضارية الغربية التى صورت للغرب أنه بداية الحضارة – التى بدأت بالإغريق والرومان – وأنه نهايتها، ونهاية التاريخ، هذه النزعة**

المركزية قد جعلت الثقافة الغربية تنكر تنوع العالم إلى حضارات متعددة ومتمايزة ومستقلة فى ثقافتها.... فزعمت هذه المركزية إن الحضارة الغربية هى الحضارة العالمية، وان العلم والتحضر قد بدأ بالإغريق وانتهى بالنهضة الغربية الحديثة، وأن إسهامات الآخرين وخاصة المسلمين لا تعدو أن تكون إسهامات **ساعى البريد** الذى نقل تراث الإغريق إلى أوروبا فى عصر النهضة والتنوير.

وبسبب هذه **النزعة المركزية الغربية** كان الاستعمار الغربى – وهو يبيد البنى الحضارية والثقافية للشعوب والأمم التى ابتليت بهذا الاستعمار – يتقمص دور صاحب الرسالة الحضارية والإنجاز التقدمى. ولقد ضمن للغرب راحة الضمير أو موته، وهو يمارس العدوان على (الآخر) الحضارى، وبالذات (الآخر الإسلامى)، ذلك الميراث المشوه والعدائى الذى حفلت به ثقافته المدنّية تاريخياً على اختلاف حقولها وميادينها إزاء الإسلام ومقدساته وأمنه وحضارته، وهو الميراث الذى لا يزال فاعلاً فى الإعلام الغربى، والتعليم الغربى، ودوائر الفكر والدراسات، وعند صناع القرار، حتى كتابة هذه الصفحات.(٤٦: ١٣٥-١٣٦)

حقا منذ البداية كانت هناك محاولات دائمة لإضعاف المسلمين، لأن الغرب دائما فى حالة استدعاء واستحضار لم هو مختزن فى عقليته، وهذا هو ربما ما دفع أوروبا للخوض حروب طويلة مع المسلمين لإخراجهم من **الأندلس** والتى استمرت ثمانية قرون، وانتهت بسقوط غرناطة عام (١٤٩٢م)، وتم إيذاء المسلمين شر إيذاء بالقتل، أو النفى، أو بإخراجهم عن الدين.

وفى ذاكرة الغرب انتصارات المسلمين الزاحفة، فلم ينس الغرب **زحف المسلمين تجاه فرنسا**(*)، ولم ينسوا معركة "بلاط الشهداء" قرب "بواتييه" عام

(*) بلغ عدد المسلمين فى أمريكا وحدها حوالى ثمانية ملايين نسمة، وفى فرنسا فى ازدياد مستمر يصل إلى حوالى أربعة ملايين نسمه.

(٧٣٢م)، ولولا هزيمة "شارل مارتل" للمسلمين، لدخل الإسلام أوروبا كلها، ومازالوا حتى اليوم يحتفلون بهذه المناسبة.

وفى ذاكرة الغرب **قوة الدولة العثمانية**(*) وفتوحاتها فى البلقان والاستيلاء على القسطنطينية عام (١٤٥٣م)، ومحاولة فتح المجر، ووصول الجيوش الإسلامية إلى "فيينا" مرتين، فى محاولة لفتحها فى عام (١٥٢٩م)، (١٦٨٣م).

وفى ذاكرة الغرب **هزيمته فى الحروب الصليبية** على يد "الناصر صلاح الدين الأيوبى"، تلك الحروب التى استمرت قرنين من الزمان من (١٠٩٥م-١٢٩١م)، استطاع الغرب فيها تجميع نفسه، كقوة واحدة ضد المسلمين، ونجح الغرب فى غرس بذور الكراهية للمسلمين، وتشويه العقلية الأوروبية عن تعاليم الإسلام وقيمه.

وأفصحت ذاكرة الغرب عن نفسها، وكشفت عن تلك المشاعر العدائية، فقد نضحت بذور العداء، وأصبح الغرب فى حالة استعلاء بالقوة والغطرسة، جعلته يجاهر بالعداء للإسلام فى **تصريحات علنية على مستوى الحكام والمسئولين والمفكرين والإعلاميين.**

وبنظرة تحليلية ناقدة على مدى التناقض بين كل من الحضارتين: الإسلامية والغربية، حول القيم الإنسانية ، وخاصة قيم: "التعددية، التسامح، الحوار،....." – التى يروج لها الغرب ويدعى رعايتها – كما ورد على الصفحات السابقة، فإن الإسلام كدين وعقيدة يزخر بكافة القيم الإيجابية التى تحقق إثراء للإنسانية، ويدعو لضرورة التعامل بها مع جميع البشر دون تمييز أو تفرقة سواء كانت بسبب: "العرق، الدين، اللغة،...." مؤكدا المساواة بين الجميع، حتى مع أهل الذمة، فلهم جميع حقوق المسلمين، وأنه لا فضل لعربى

(*) لذلك سارعت أوروبا بعد تفتيت الدولة العثمانية والاستعمار الغربى لممتلكاتها بتحويل تركيا إلى دولة علمانية، ويشيد الغرب بها كنموذج علمانى، على الرغم من ماضيها الإسلامى وكثرة المسلمين بها

على أعجمى إلا بالتقوى، ومن أهم هذه القيم فى إطار موضوعنا: [الحرية، الشورى، الحوار، التنوع والاختلاف، التعددية، التسامح، الحقوق،....].

ويأتى ترويج الحضارة الغربية العلمانية لهذه القيم لصالح الإنسان الغربى فقط، وعلى حساب كل مَنْ سواه، حقا إنها تروج لـ"**الليبرالية**"، ولكن لمَنْ، أنها حرية المواطن الغربى فقط، ولذا فإنها تسعى لتسود وتهيمن على جميع الحضارات، بل واعتبرت نفسها هى آخر الحضارات بل ونهاية التاريخ، وان الإنسان الغربى هو الأخير، ولذلك فهى تسعى جاهدة لإخضاع العالم كله، وخاصة العالم الإسلامى الذى أعلن الرئيس "جورج بوش" الابن أنه "محور الشر" واتهمه بالإرهاب، وأنه على الإدارة الأمريكية تأديبه، كما يتهم هذا العالم بالتخلف والجهل والبربرية ليبرر ضرورة إخضاعه والتدخل فى شئونه لبسط الهيمنة على ثرواته ومقدراته.

وحين تروج الحضارة الغربية لـ"**الديمقراطية**" فهى تعنى الديمقراطية الغربية، ولصالح المواطن الغربى، لأنها بالرغم من ترويجها للديمقراطية إلا أنها تخاف انتشارها فى العالم الإسلامى، ليقينها أنها قد تُمَكنْ الأصوليين الإسلاميين من الوصول إلى الحكم، وتصبح جمهوريات إسلامية، وفى هذا إضعاف وتعارض مع العلمانية وتعويق لمصالحها التى تقوم على الاستغلال والهيمنة وسلب الثروات.

وفى ترويج الحضارة الغربية لـ"**التعددية الأمريكية**" فإنها تؤكد حتمية الصراع والصدام مع الحضارات الأخرى، وترفض التنوع والتعددية، مما يؤكد رفضها للحوار، تمهيداً لبسط هيمنة النموذج الغربى العلمانى على جميع الحضارات، ومطالبة الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص بالاندماج فى النموذج الغربى العلمانى، لأن الإسلام كما وصفوه إنه ذو الحدود الدموية،

والذى يجب الانتصار عليه، بل وخرج المثقفون الغربيون علينا بخطط استراتيجية توضح كيفية مهاجمة الإسلام وتدمير بلاد المسلمين، وإبادتهم.

وحين تروج الحضارة الغربية بأنها راعية **"حقوق الإنسان"** فهى تعنى الإنسان الغربى، وعلى حساب كل مَنْ سواه، لذلك كان الكيل بمكيالين، وازدواجية المعايير، رغم يقينها بأن الإسلام قد سبقها بقرون طويلة فى الدعوة لرعاية حقوق الإنسان بل وممارستها عملياً، كل إنسان، دون تفرقة أو تمييز لأى من (النوع، العرق، الدين، اللغة ...)، وكفل الإسلام الرعاية لكل حقوق الإنسان، بدءً من حقه فى الحياة والوجود، وعلّمنا الإسلام كيفية التعامل مع الإنسان، حتى ولو كان أسيراً، إنه دين يؤكد على مكارم الأخلاق، والمساواة، والعدل، حتى مع المختلفين فى الدين، جعل لهم نفس حقوق المسلمين الذين يعيشون معهم، أيضا حفظ لهم حقوقهم فى السلم والحرب مساواة بالمسلمين وانطلاقا من مقومات هذا الدين العظيم، وقوته الراسخة التى تمكنه من التجديد والإصلاح الذاتى.

إن كل ما تروج له الحضارة الغربية اليوم، ليس بجديد فقد نادى الإسلام به منذ قرون طويلة، ولكن **لكل البشر دون تفرقة أو تمييز أو إكراه**، ولكن اليوم تكشف الحضارة الغربية عن وجهها بلا استحياء، وتروج لهذه القيم لصالح الإنسان الغربى فقط، وتناصب الإسلام العداء علناً وتعد الخطط والممارسات لتدمير بلاد المسلمين إن لم تنجح فى بسط الهيمنة عليها وسلب ثرواتهم ومقدراتهم.

وبنفس النظرة الناقدة التحليلية للتصريحات الغربية، من بعض المفكرين والحكام والإعلاميين، والتى وردت على صفحات بعض الصحف والمجلات والكتب، يتأكد أنها جميعاً على خط واحد، وفكر ممتد لا اعوجاج فيه سواء قبل أحداث ١١ سبتمبر أو بعدها، مما لا يكشف فقط النقاب عن العداء، بل أيضا

يؤكد أن عداء الغرب العلمانى للإسلام، عتيق وضارب بجذوره فى نفوسهم، ومتوارث، بل ويُعمل دائما على استثارته، وتنمية لديهم، **وبتحليل هذه التصريحات وتلك الكتابات ونقدها يمكن تحديد: لماذا اتخذوا الإسلام عدواً لهم؟ وما مظاهر هذا العداء:**

[١] خوف الغرب من انتشار الإسلام:

إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت عليه من مائة سنة مضت، إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعاً ما، والأمر المدهش هو أن يظل صحيحاً فى ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية، فهو صحيح فى ظل نظم راديكالية (ثورية) اجتماعية، وهو صحيح أيضا فى ظل النظم التقليدية، وهو صحيح بالنسبة للنظم التى تقف بين النوعين.

كما أن وجود تقاليد بعينها للإسلام... قد مكنت العالم الإسلامى من أن يفلت من المعضلة التى أرّقت مجتمعات أخرى (غير متطورة) وقد أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال... معضلة إضفاء الطابع المثالى على الغرب ومحاكاته... لقد امتلك الإسلام **مقومات الإصلاح الذاتى**، باسم الإيمان، وذلك هو التفسير الأساسى **لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة.**

إن امتلاك الإسلام مقومات **التجدد الذاتى**، هو الذى جعله **مستعصياً على العلمنة**، واستثناء – من بين ثقافات الجنوب – فى رفض التغريب والذوبان فى النموذج العلمانى الغربى، الذى ربط الديمقراطية بالعلمنة التى تفصل بين ما لله، وما لقيصر!!!...، ولذلك كان إعلان الغرب: "أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية(*). (٤٦: ١٤١)

(*) هذه العبارة نص تصريح "ويلى كلابس" الأمين العام لحلف الأطلنطى فى منتصف تسعينيات القرن العشرين.

وتفصح تصريحات الحكام والمسئولين والإعلاميين، حتى قبل أحداث ١١ سبتمبر والتى سبق ذكر أمثلة لبعضها، عن مدى الخوف من الإسلام، ووضح ذلك فى تشجيع صحيفة صندای تلجراف عام ١٩٩١، على ضرورة استمرارية حلف شمال الأطلنطى، كمجموعة لها قيمها، فى مقابلة للخطر الإسلامى، وكذلك ما صرحت به صحيفة صندای تلجراف عام ١٩٩٠، من تساؤلها المفزع "هل يقبرنا الإسلام"؟ وتحذيرها من انتشار الإسلام فى أوروبا، لأنه بذلك يعتبر تحدياً أيديولوجياً لأوروبا، واحتمالية تأثيره -بما يتسم به من احترام، وقوة، وجاذبية- على أساليب الحياة فيها، ولأنه يعتبر **تحدياً للطمانية**، وهذا الخوف صرحت به أيضا صحيفة نيوزويك عام ١٩٩٥، فى مقالة "أوروبا المسلمة"، فى محاولة منها لبث الرعب لدى الأوروبيين من تزايد عدد المسلمين فى أوروبا ومحاولة إثارة المشاعر العدائية ضدهم، بل ومطالبة أوروبا بتدمير بلاد المسلمين مثلما فعل الغرب فى ألمانيا النازية، وقد حدث أكثر من ذلك فعلا فى كل من فلسطين، وأفغانستان، بعد تجمع أوروبا بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية فى تحالف دولى لمكافحة ما أسموه بالإرهاب، للفتك بالمسلمين وإبادتهم.

ويأتى على قمة التهديد وإثارة المشاعر العدائية للإسلام، تصريح الرئيس الأمريكى "بوش الابن"، عقب أحداث ١١ سبتمبر، بأنها الحرب الصليبية الأولى فى القرن الحادى والعشرين، وما كان ذلك زلة لسان، من رئيس دولة عظمى تمثل القطب الأوحد فى العالم، ولكنه الحقيقة التى قالها وأعد لها وينفذها، من خلال التحالف العالمى، الذى نجح فى تكوينه، ولهذا دلالات **ومعانى منها**:

- كلمة أولى الحروب: تؤكد أن هناك حروب أخرى تماماً مثلما وصفها بأنها حرب صليبية، وجميعا نعلم أنها كانت عدة حروب، مما يؤكد أنها حرب طويلة الأمد، غير محدودة المدة، ومستمرة وبالكيفية التى تم التخطيط لها.

- وصفت بأنها صليبية، لإثارة مشاعر أوروبا ضد المسلمين، وتحفيزهم، وتذكيرهم بتلك الحروب، ليوقظ العداء للإسلام.

- ادعت أمريكا أنها حرب ضد الإرهاب، وبدأت بتدمير أفغانستان دون وجود دليل لشن الحرب عليها، ولكنها بدأت بدولة إسلامية مستضعفة، أنهكتها الحروب لأكثر من عشرين عاماً مضت.

- بدأت أمريكا وبريطانيا ومن وراءهما التحالف العالمى بضرب أفغانستان، ولكن هناك دول أخرى كثيرة **وكلها إسلامية**، وسيأتى دورها فى الحرب والتدمير حسب القائمة، وفى التوقيت، وبالكيفية التى يراها الغرب فى التعامل معها، ولا ننسى أن "بوش" نفسه صرح بأن العالم الإسلامى هو "مصدر الشر كله".

- ادعت أمريكا أنها تحارب الإرهاب، وفى إعدادها للتحالف الدولى **أرهبت العالم**، وخيّرت كل دولة أن تحدد (إما مع أمريكا أو مع الإرهاب)، وحتى تُجبِر الجميع على التحالف معها، **دون تحديد لمعنى الإرهاب**، أليس هذا هو الإرهاب بعينه؟

أنها حرب تجاوزت حرب النازية بكثير، فهى **متعددة الأبعاد ومتنوعة** فى ممارستها، فهى عسكرية، وسياسية، واقتصادية، وثقافية، واستخدمت فيها نتائج التكنولوجيا، فى كل المجالات، وخاصة الاتصالات، ناهيك عن نوعية القنابل وأسلحة الدمار الشامل، التى صبت فوق رؤوس الأفغان – **لترهب بذلك بقية بلاد المسلمين**.

أنها حرب طويلة الأمد ومستمرة، وهى متعددة المراحل، فإن كانت بدأت بأفغانستان كحرب معلنة، فهناك حروب أقصى وأمر غير معلنة، وأشد عصفاً بمقدرات الأمة وثرواتها، وميراثها، ولذلك برز على الساحة مصطلح "**تجفيف مستنقعات الإرهاب**"، وما أسهل الإشارة إلى أى بلد إسلامية، على أنها تحوى

مستنقع إرهاب، وما أسهل **افتعال المشكلات**، وإسقاطها على بلاد المسلمين ظلماً وبهتاناً، حتى يكون المبرر لتدميرها وسفك دماء المسلمين بها، ونهب ثرواتها، وما أبشع التهديدات التى تعج بها صحف الغرب، والتى **تطاولت على مقداساتنا** فى مكة، تطالب ضربها بقنبلة نووية، والأدهى والأمر الإعلان بأن [العرب لن يفعلوا شيء إذا حدث ذلك، سوى أنهم قد يعترضوا ويرفضوا ذلك الفعل، ومَنْ يتجاوز الاعتراض، يضرب هو أيضا بقنبلة ذرية] هل هناك عداء أبشع من ذلك؟!!! هل هناك إرهاب أفظع من ذلك؟!!! إنه الاستعلاء بالقوة والغطرسة، التى فاقت كل تصور، واتسمت به الحضارة الغربية عامة، والولايات المتحدة خاصة.

[٢] التحذير من المد الإسلامى، والصحوة الإسلامية:

وضح ذلك التحذير من الصحوة الإسلامية خوفاً من أن تتحول إلى جمهوريات إسلامية، ولذلك يحذر الغرب من انتشار الديمقراطية فى الدول الإسلامية خوفاً من وصول الأصوليين إلى الحكم، وهذا التحذير صرحت به صحيفة فاينشنال عام ١٩٩٠، وكذلك كان هناك دائما محاولات لإجهاض هذا المد باعتباره خطر يجب التخلص منه، وهذا ما صرح به – على سبيل المثال – الرئيس الأمريكى "نيكسون" عام ١٩٨٥، ودعوته لتعاون الاتحاد السوفيتى معه – قبل انهياره – فى ضرب الأصوليين الإسلاميين، وهو نفس الشيء الذى صرحت به "مارجريت تاتشر" عام ١٩٨٩ عقب انهيار الاتحاد السوفيتى- أمام حلف شمال الأطلنطى – بضرورة القضاء على الخطر الإسلامى، وأيضا ما صرح به "هنرى كسينجر" عام ١٩٩٠ من ضرورة مواجهة العالم الإسلامى لأنه عدو الغرب، وما صرح به "فرانسو ميتران" من مساعدته للعراق فى محاربته إيران لأنها بذلك تقضى على الأصوليين الإسلاميين فى إيران، وبلغت حدة هذا الخوف من مناداة وزير الدفاع الفرنسى بضرورة إعداد جيش طوارئ من فرنسا

وإيطاليا وأسبانيا للتصدى للأصوليين الإسلاميين بطول شمال أفريقيا وفى عمق أفريقيا أيضا.

وهكذا تعلن أكبر الدول الأوروبية إضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عن خوفها من الإسلام واعتباره عدواً، ويخافون من الانبعاث الإسلامى، والصحوة الإسلامية لإدراكهم مدى قوة الإسلام، وجاذبيته مما يهدد قيم العلمانية، ولذلك هم فى تدبير دائم للقضاء على الإسلام والتخلص من المسلمين.

[٣] حتمية الصراع بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية:

أجمع الغرب جميعا على خط واحد ممتد لا اعوجاج فيه على العداء للإسلام، ووصمه بالعنف والعدوانية، وأنه محل صراع بين الشرق والغرب، وهذا ما أفصح عنه – على سبيل المثال: "إيكارت فيرتى"، وكذلك "صاموئيل هنتنجتون" الذى قال بأننا [لا نعرف من نحن إلا من خلال معرفة نحن ضد من]، أى ضرورة وجود عدو محدد لمحاربته والانتصار عليه، وكان هذا العدو هو (الإسلام)، وأفصحت عن ذلك كتابات أواخر القرن العشرين بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وخاصة اطروحة "هنتنجتون" التى تحولت إلى خطة استراتيجية لمواجهة الإسلام الذى وصفوه بأنه ذو حدود دموية وقتالية، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ترجمت الخطة إلى **إجراءات فعلية** نفذت بمعرفة التحالف الدولى بقيادة أمريكا وبريطانيا فى نهاية عام ٢٠٠١، بحجة محاربة ما أسموه بالإرهاب، بدأت بالحرب على أفغانستان وتدميرها بآلاف القنابل المحرمة دوليا، مما خلف آلاف القتلى والأسرى، وكذلك إطلاق يد إسرائيل فى فلسطين ضد الشعب الأعزل والمنظمات الفلسطينية التى تسعى لتحرير أراضيها من الاحتلال الإسرائيلى، بل وأعدت قائمة طويلة وكلها من الدول الإسلامية التى دخلت ضمن مصطلح "تجفيف مستنقعات الإرهاب"، وتجاوز العداء للإسلام رفض

التحدث بالإسلام فى مقار الأمم المتحدة، مما جعل علماء الإسلام، والمفوضة السامية لحقوق الإنسان تبدى اعتراضا على ذلك.

إن الافتراءات والأباطيل التى تروج لها الصهيونية العالمية ضد الإسلام، واتهامه تارة بالعنف والحدود الدموية القتالية، وأخرى بالإرهاب، إن هى إلا ذرائع واهية تبرر إبادة المسلمين وتدمير مقدراتهم، طالما لم تنجح فى سلبها ونهبها، فأعداء الإسلام أكثر علماً بجوهر الإسلام كعقيدة ذات أبعاد ومعايير وأخلاقيات تحكم سلوك المسلمين عامة وفى أحوال الجهاد والقتال خاصة بدء من دولة الإسلام الأولى بـ"المدينة المنورة".

إن دستور أخلاقيات القتال فى الإسلام موجهاً بالقرآن الكريم والسُنة الشريفة لذلك نجد أن المسلمين لا يقاتلون غيلة وفجأة، وإنما لابد لهم من إعلام الآخرين المعاهدين الذين لم يتلبسوا بالخيانة والعدوان بالقتال، مادام الموقف عند حدود "الخوف من نقض العهد... والعدوان الوشيك". قال تعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ [الأنفال ٥٨].

وفى السيرة النبوية الشريفة: أن رسول الله ﷺ، ما قاتل قوماً حتى يدعوهم، رواه الإمام أحمد، وأبو يعلى، والطبرانى.. وإذا قاتل المسلمون فإنهم لا يجهزون على جريح، ولا يقتلون أسيراً، بل ولا يضيقون عليه فى ضروريات وحاجيات الحياة، وكذلك فإنهم لا يقاتلون، ولا يقتلون غير المقاتلين، فلا قتال ولا قتل للنساء والأطفال والمسالمين والرهبان والعباد والمنصرفين إلى الزراعات والتجارات والصناعات والحرف وشئون العمران. بل لقد ذهبت **"أخلاقيات الفروسية الإسلامية"** إلى آفاق التشريع للتعامل الإنسانى الرفيق مع الحيوانات، ومع النباتات إبان القتال، فهم لا يقطعون شجراً، ولا يقتلعون زرعاً ولا يدمرون البيئة ولا يذبحون حيواناً إلا لضروريات وحاجيات الحفاظ على الحياة، وفى سُنة رسول الله ﷺ وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ذخائر لدستور هذه

الأخلاقيات – أخلاقيات القتال – فلقد روى مالك فى "**الموطأ**" عن عبد الرحمن بن كعب أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل النساء والولدان.

– وأخرج البخارى ومسلم ومالك – فى "الموطأ" – عن **ابن عمر رضى** الله عنهما: أن رسول الله ﷺ رأى فى بعض مغازيه إمرأة مقتولة فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان.

– وكتب **عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه** إلى عامل من عماله يقول: "أنه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سريه يقول لهم: اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله ولا تغلوا[1]، ولا تغدروا، ولا تمثلوا[2]، ولا تقتلوا وليدا"، ثم أردف عمر بن عبد العزيز فى رسالته إلى واليه يقول له: "قل ذلك لجيوشك وسراياك إن شاء الله، والسلام عليك، رواه مسلم ومالك فى الموطأ"

– ومن طلب الأمان من المقاتلين ولو بإشارة فدمه مصون وحرام، كتب **ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه** إلى قائد أحد جيوشه فقال: "أنه بلغنى أن رجلا منكم يطلب العلج[3] حتى إذا أسند فى الجبل وامتنع، قال رجل: مطَرْسَ (يقول لا تخف)، فإذا أدركه قتله، وأنى والذى نفسى بيده، لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه – رواه مالك فى "الموطأ".

ولقد صاغ **أبو بكر الصديق – رضى الله عنه** – هذه الشمائل الإسلامية دستوراً لأخلاقيات القتال فى الإسلام، عندما أوصى يزيد بن أبى سفيان [١٨هـ – ٦٣٩م] وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب إلى الشام فقال له: "إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له،

---

(١) الغلول: الخيانة فى المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل قسمتها.

(٢) المثلة: بضم الميم وسكون التاء وفتح اللام، هى التمثيل ببدن الخصم بعد قتله بالجدع للأنف أو السمل للعين أو قطع الأعضاء وهى محرمة شرعاً.

(٣) العلج: بكسر العين وسكون اللام الفلاح من كفار العجم.

وأنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلّل، ولا تَجْبنْ، رواه مالك فى "الموطأ".

تلك بعض لمحات من دستور أخلاقيات القتال فى الإسلام وطبقه المسلمون دينا يتدينون به، قبل أربعة عشر قرناً من اتفاقيات جنيف ومواثيق حقوق الإنسان التى لا يذكرها ولا يتعلق بها إلا الضحايا والمستضعفون.

ولأن هذه كانت معايير القتال فى الإسلام فقد كانت حصيلة كل الغزوات التى قادها رسول الله ﷺ وخاضها المسلمون- على امتداد السنوات التسع التى شهدت الغزوات والبعوث والسرايا القتالية فى دولة الإسلام الأولى بالمدينة- كانت حصيلتها ذلك الرقم المدهش فى تواضعه الشديد، أن لم نقل فى ضآلته وتفاهته، فعلى حين أهلكت الحروب الدينية بين مذهبين داخل النصرانية الكاثوليك والبروتستانت فى وسط أوروبا ٤٠% من تعداد شعوب تلك البلاد، أى حوالى عشرة ملايين نسمة حسب إحصاء فولتير [١٦٩٤ - ١٧٧٨م] لم يزد **عدد ضحايا كل غزوات الإسلام وحروبه ضد الشرك واليهود فى شبه الجزيرة العربية فى عهد رسول الله ﷺ عن ٣٨٦ من الفريقين** أى من شهداء المسلمين وقتلى المشركين.

ومع كل هذه الحقائق المذهلة بالأرقام والأخلاقيات التى حكمت فروسية القتال الإسلامية، ومع هذه المبادئ والمعايير القرآنية التى حكمت مشروعية القتال فى الإسلام، مع كل ذلك، تحدّث الكذبة عن انتشار الإسلام بالسيف والعنف والإكراه، ولا يزالوا يتحدثون. (٤٦: ٦١-٦٦)

[٤] التكالب على المسلمين، واتهامهم بالعنف والإرهاب:

لم يكن التكالب على المسلمين حديثاً، بل هو قديماً، حيث ظهرت ملامحه مع ظهور الدعوة الإسلامية، وازدادت كمداً بازدهار الحضارة الإسلامية، واتخذ

ذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتى، حيث كانت هناك دعوة للتوحد معه ضد الأصوليين الإسلاميين، نادى بها "كلاوس نيومان" قائد القوات الألمانية معبراً عن خوفه من خطر الإسلام، باعتباره يمثل تحدياً أيديولوجيا للعلمانية، كما ناشدت صحيفة صنداى تايمز ضرورة تعاون الغرب مع الاتحاد السوفيتى – قبل انهياره – لمواجهة الأصوليين الإسلاميين من شواطئ البحر المتوسط فى شمال أفريقيا إلى أسيا الوسطى إلى حدود الصين.

ولقد دفع هذا الواقع المؤلم وأعداء الغرب للإسلام، دفع "مصطفى محمود" فى عام ١٩٩٤ للتهكم على ظلم الولايات المتحدة والغرب للعالم الإسلامى، فقال وكأنه كان يقرأ أفكارهم: "لكى تتجنب أمريكا صراعات لا تنتهى مع (٤٧) دولة إسلامية على اتساع رقعة العالم فى محاولة لملاحقة أى انتفاضة إسلامية، سوف تفكر أمريكا ومعها المعسكر الأوروبى وإسرائيل فى معالجة المشكلة من رأسها بحل نهائى، وحيث أن رأس الإسلام هى الكعبة المشرفة، والحرم النبوى، والمسجد الأقصى، فقطع الرأس وكسر عين المسلمين فى عملية واحدة سوف يوفر الكثير وينهى المشكلة، ويخلص العالم من الصراع الإسلامى، والصواريخ ممكن أن تطول من بعيد أى شىء، وهذا يوافق أهل التلمود وأحلام يهود البروتوكولات، والانتقام مما فعله رسول الله ﷺ فى يهود خيبر فى كتبهم، وهو غاية منتهى أحلامهم" (٥٣: ٦٠، ٦١).

ولم تمضى إلا سنوات قليلة على مقولة "مصطفى محمود" حتى خرج علينا الكاتب الأمريكى "**ريتش لورى**" فى مجلة ناشيونال ريفيو يطالب بضرب مكة المكرمة بقنبلة نووية وتدمير الكعبة المشرفة، وأيضا ضرب كل دولة يتجاوز اعتراضها عن انتقادها هذا السلوك، لابد أن تتعرض لإبادة نووية، وحدد بالذكر مصر، والجزائر وسوريا، والأغرب من ذلك أن ترفع هذه المقولة فى تقرير رسمى إلى عدة منظمات برئاسة "ماداهان" حيث تطالب بإعادة قراءة هذه

تقرير رسمى إلى عدة منظمات برئاسة "ماداهان" حيث تطالب بإعادة قراءة هذه الدعوة فى ظل التحالف الدولى ضد الإرهاب، ثم إرسال التقرير إلى الكونجرس الأمريكى تحت عنوان: "ولما لا؟" لمناقشته فى ضوء اعتقاد "مادهان" أن كل الأعمال العظيمة تبدو فى بدايتها مستحيلة إلا أن التصميم عليها يجعلها قابلة للتنفيذ".

ولم يمضى على دعوى "لورى" كثيراً، حتى خرجت مجلة إسرائيلية فى ٢٠٠٢/٣/١٧ تهدد هى الأخرى بضرب مكة المكرمة وتدمير الكعبة المشرفة، وهكذا **استباح الغرب وإسرائيل لأنفسهم مقدساتنا**، أليس هذا هو الإرهاب بعينه، ويصرح به علناً، وتدعمه أكبر دولة فى العالم، وتدّعى أنها تحارب الإرهاب، ليتأكد الجميع أن الصهيونية تدعمها أمريكا ومجسمة فى إسرائيل هى فى حقيقة الأمر وراء إبادة المسلمين، وانتهاك حرمة مقدساتهم، وفى سعى دائم لتدمير ثرواتهم طالما استحال عليهم نهبها والسيطرة عليها.

وهكذا يتكالب الغرب على المسلمين، وفى محاولة دائمة لتأليف الأباطيل، وإسقاطها عليهم، واتهامهم بالعنف وأنهم إرهابيون، وأن الإسلام ذو حدود دموية، وأنهم دعاة حرب وعنف لكل مَنْ هو غير مسلم، وحتى المسلمين المخالفين لهم، واستشهدوا فى ذلك بإهدار دم سلمان رشدى صاحب كتاب "آيات شيطانية".

إن استمرارية الغرب فى المغالطة والتشويه للعرب والمسلمين مقصودة وفاعلة، يساعده فى ذلك امتلاك نتائج التكنولوجيا المتطورة عامة، وفى مجال الاتصالات خاصة، وإن كان هذا التشويه يختلف وبنسب متفاوتة فى أوروبا عنه فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى هذا توصلت **إحدى الدراسات** (١٢) التى استهدفت البحث فى كيفية المعالجة الإخبارية للقضايا العربية داخل الأنظمة الاتصالية فى كل من شبكة الـ [سى إن إن CNN] الأمريكية، واليورنيوز

نفيها فى أداء الشبكتين، ومقارنة حجم الإيجابية، والسلبية فى معالجتهما لقضايا العالم العربى ومن أهم ما توصلت إليه الدراسة ما يلى:

- **استمرار شبهة عدم التوازن، والتحيز** فى أداء هذه الشبكات فى معالجتها للقضايا العربية، وإن كانت بنسب متفاوتة ولصالح الشبكة الأمريكية C.N.N التى ثبت أنها أكثر تحيزاً وتشويهاً للعالم العربى من نظيرتها الأوروبية.
- **قوة السيادة الأمريكية التكنولوجية**، وخصوصاً الأنظمة الاتصالية المختلفة وفى مقدمتها: خدمات الإنترنت، الأقمار الصناعية، وكذلك التقدم الهائل فى أساليب تقديم البرامج من خلال التكنيكات الفنية الحديثة، وهو ما برز بوضوح فى إنتاج شبكة ال [سى إن إن CNN] والتى خصصت مساحات من إنتاجها لتقديم برامج تعتمد على هذه الخدمات مثل Q & A القائم على خدمات الإنترنت والبريد الإلكترونى Email، والتحدث عبر الإنترنت Chatting Net وكذلك برنامج CNN DOT COM القائم على موقع الشبكة عبر الإنترنت، وبرامج أخرى.
- كما توصلت الدراسة إلى وجود **مجموعة قوى دولية تتنافس** كل منها على تحقيق استقلاليتها، وأن شبكة اليورنيوز صاغت رسائلها الاتصالية فى ضوء الرؤية الأوروبية المستقلة والمنافسة للرؤية الأمريكية.
- **التقدم التكنولوجى اصبح عاملاً مؤثراً فى زيادة الاختلال الإخبارى** فزاد الأقوياء قوة، لامتلاكهم هذه التكنولوجيا، فى حين ازداد العالم النامى ومن بينهم (العالم العربى والإسلامى) تهميشاً لضعف توافر الوعى اللازم لإدارة هذه التكنولوجيا (١٢: ٣٧٣-٣٧٤)

[٥] التطاول على الإسلام والمسلمين واتهامهم بالتخلف، والبدائية، والبربرية:

رغم علم الغرب اليقين بفضل الحضارة الإسلامية على أوروبا، وإخراجها من ظلام الجهل والتخلف والاستعباد إلى عصر النهضة فى القرون الوسطى، إلا أنهم فى مغالطة لأنفسهم، ويصفون المسلمين بالبدائية والبربرية والتخلف، ونسوا أنهم السبب فى هذا التخلف نتيجة عقود طويلة من الاستعمار والاستغلال والحروب المعلنة والخفية، ثم يصرح الرئيس الأمريكى "نيكسون" فى كتابه "اقتناص الفرصة" أن معظم الغربيين يرون المسلمين برابرة غير متحضرين غير عقلانيين، وزاد هذا التطاول والافتراء وتجاوز حدوده حتى أنهم شككوا فى نزول القرآن الكريم وتدوينه، والافتراء على سيدنا محمد رسول الله ﷺ وعلى آل بيته وصحابته، ومثال ذلك تصريح الصحيفة الأسبانية بذلك عام ١٩٨٨، كما أن الغرب يرفض تعاطف أى منهم مع الإسلام، ولعل الباحث الفرنسى "فرانسو بورجا" الذى مُنِعَ ظهوره فى التليفزيون الفرنسى نتيجة لإنصافه الإسلام قد يعطى مثالاً ودليلا على ذلك الجور والجحود على الإسلام والمسلمين حتى فى بلاد الغرب.

ويكشف عن ذلك الجور والجحود نتائج **العديد من الدراسات والبحوث العلمية**(*) التى تمت فى أنحاء ومجالات شتى بشأن تغطية أخبار العالم الثالث وخاصة العالم الإسلامى، حيث أفصحت تلك النتائج عن مدى الإجحاف والتشويه والافتراءات التى تنسب إلى العرب والمسلمين، ومدى السلبية التى تعامل بها قضاياهم المصيرية.

ففى دراسة قام بها **داهليجرن Dahlgren عام ١٩٨٢**، (٦٤)، توصل الباحث إلى وجود ثلاث سمات أساسية تسيطر على تغطية أخبار العالم الثالث فى شبكات التليفزيون الأمريكية، وهى: [الفوضى الاجتماعية والبدائية، والتنمية

(*) راجع حنان إسماعيل أبو يوسف، المعالجة الإخبارية للقضايا العربية فى شبكتى ال سى إن إن. واليورونيوز، ص ص٨-١٢.

الخاطئة]، ومن أهم ما توصلت إليه الدراسة أن التصورات التراكمية التى تظهر من المعالجة الإخبارية فى الشبكات التجارية التليفزيونية الأمريكية تشير وبشكل شديد المبالغة إلى أن الفوضى شيء أبدى فى العالم الثالث، وأن العنف فى تلك الدول هو عنف من نوع خاص جداً، فهو عنف صريح ولا مبرر له، وأن الفساد فى دول العالم الثالث يبدو وكأنه يتسم بخاصية منتظمة، بينما فى الجانب الآخر يظهر الغرب الذى يدافع عن العقلانية. (١٢: ٨).

كذلك توصلت دراسة **لارسون Larson عام ١٩٨٦**، (٦٩) التى اهتمت بتحليل أخبار شبكة (C.B.S) الأمريكية، إلى أن أخبار العالم الثالث تمثل ١٢% من مجموع الأخبار المذاعة فى شبكة (C.B.S)، وقد ترتفع هذه النسبة إلى (٢٩%) حينما تتعلق الأخبار بكل من الولايات المتحدة والدول النامية معاً، ويحدد "لارسون" افتراضات أساسية حول الطريقة التى تؤثر بها وسائل الإعلام الإخبارية خاصة التلفاز على السياسات والعلاقات الخارجية منها ما يلى:

- أن وسائل الإعلام فى مختلف أنحاء العالم تقتفى أثر السياسات الحكومية وتدعمها حتى فى الولايات المتحدة، وذلك بسبب الاعتماد على المصادر الحكومية بالنسبة لكثير من الأخبار.
- أن وسائل الإعلام تشارك فى السياسات الخارجية، حينما تعمل كقنوات اتصال بين المسئولين فى دولتين، وفى بعض الأحيان تكون المعلومات المتوفرة لدى بعض وسائل الإعلام أكثر مما لدى الحكومات، وفى هذه الحالة فإن اتجاه التدفق الإخبارى ينعكس لتصبح هذه الوسائل مصدراً للمعلومات الرسمية.
- قوة وسائل الإعلام خاصة التليفزيون فى نقل العواطف والإحساس بالألفة، يمكن أن تكون عاملاً مؤثراً فى السياسة الخارجية.

- تسهم وسائل الإعلام فى تغيير الفهم العام لكثير من الشئون الدولية، وخاصة عندما تتكرر المعالجة الإخبارية لحدث من الأحداث لفترة طويلة نسبياً. (١٢: ٩)

وفى دراسة قام بها **محمد يونس ١٩٩٨**، (٣٦) مشيراً إلى مدى التناقض فى المعالجة الغربية إزاء قضايا المسلمين، انطلاقا من ازدواجية المعايير فى التعامل حتى مع الأمور المصيرية، ولصالح نوعية العلاقة مع الدول وحجمها، ففى هذه الدراسة قام الباحث بتقديم نموذج مقارنة حول تناول الأنباء الغربية لقضيتين تتشابهان فى حجم المأساة الإنسانية وتختلفان من حيث الموقع الجغرافى، وحجم المصلحة مع الغرب:

القضية الأولى: أحداث 'كوسوفا والتى ارتكب فيها الصرب جرائم بشعة ضد المسلمين وما أحدثه من تدمير شامل لمقدراتهم.

القضية الثانية: خاصة **بالانفصاليين فى جنوب السودان** وحروبهم التى أدت إلى مجاعة شديدة وخسائر بشرية ومادية مؤلمة.

إلا أن نوعية اللقطات التليفزيونية التى صاحبت التقارير الإخبارية حول أحداث السودان كانت أعمق فى إظهار المجاعة وتأثير الحرب، أكثر من تلك اللقطات التى صاحبت التقارير الإخبارية عن مأساة المسلمين فى كوسوفا ذات الأغلبية المسلمة والتى اقتصرت فقط على مشاهد الهجرة الجماعية لبعض هؤلاء المسلمين. (١٢: ١١)

كذلك توصلت دراسة **راجية قنديل عام ١٩٩١** (١٦) من خلال إثبات صحة فرض دراستها التحليلية حول المعالجة **الدولية السلبية** لأحداث العالم الثالث، من خلال مجلة "تايمز Times" الدولية، وذلك فى قلة الحيز الذى شغلته أنباء العالم الثالث، وما اتسم به المضمون من إبراز لجوانب **العجز والتخلف**

والفشل، فضلا عن التواضع فى مساحة التقارير والقصص الإخبارية الواردة عن أحداث العالم الثالث على صفحات مجلة التايمز. (١٢: ١٣)

ناهيك عن الدور الخطير الذى تلعبه كل من **هيئة الإذاعة البريطانية**، **وإذاعة صوت أمريكا**، من خلال البرامج السياسية الموجهة باللغة العربية، فلقد توصلت دراسة **سامى الشريف** ١٩٨١، (٢١) من خلال إجراء تحليل مقارن للبرامج السياسية الموجهة باللغة العربية لهيئة الإذاعة البريطانية وإذاعة صوت امريكا، أن الأنباء والموضوعات السلبية المتعلقة بالدول العربية تشكل نسبة أعلى من الأنباء والموضوعات الإيجابية فى هاتين الإذاعتين على حد سواء. مما يؤكد **الاتجاه السلبى للتغطية الإعلامية الدولية لأنباء العالم العربى**، فالسلبية أصبحت واحدة من قيم اختيار الأنباء فى وسائل الإعلام الغربية، إزاء قضايا العالم العربى أو العالم الثالث، بل صارت منبراً للهجوم الدعائى، حيث يحدث تجاهل لقضايا وإبراز لقضايا أخرى، وفقاً لطبيعة العلاقات بين الدول. (١٢: ١١)

واستمرارا لإصرار (الآخر) على تدعيم المغالطات، والأباطيل والجحود، والتشويه لصورة العالم العربى الإسلامى، **كان مناصرة إسرائيل والوقوف بجانبها على حساب الحق العربى**، وكذلك محاولات التقليل من أى إنجاز يحققه أى بلد عربى، إما بتجاهله أو نعته بالسلبية، أو إنكاره، ودائما يأتى التصور الغربى لأى بلد عربى مرتبطاً بمدى ونوعية التغيرات فى النظام السياسى فى ذلك البلد، وكذلك مدى توجهاته نحو هذا (الآخر)، ويسهم بفاعلية فى رسم ملامح هذا التصور مدى وحجم المتغيرات فى المصالح والعلاقات المتبادلة بينهما، مما يشير بوضوح إلى مدى فاعلية السياسة الخارجية مع (الآخر) فى رسم ملامح تلك الصورة سواء بالسلب أو بالإيجاب.

وفى هذا الصدد كشفت **العديد من الدراسات**(*) عن تلك الصورة المشوهة للعرب، وكيفية ارتباطها بنوعية العلاقات مع (الآخر)، ومدى فاعلية هذه العلاقات فى تحديد ملامح الصورة ومن هذه الدراسات: **دراسات ميشيل سليمان الثلاثة** (٧٢)، أما عن **الدراسة الأولى**: وكانت حول تغطية أخبار الشرق الأوسط فى سبعة صحف أمريكية من يوليو إلى ديسمبر ١٩٥٦، وقد اعتمد ميشيل على تحليل مضمون "نيويورك تايمز New York Times ، يو إس نيوز U. S. News، ذا نيشن The Nation، ذا نيوز ربيبلك The News Republic، نيوزويك تايمز News Week Times، وكان الباحث قد وضع فرضية لدراسته مؤداها: "أن نوع المعلومات التى تقدم عن الشعوب الأخرى فى الصحف والمجلات تحدد لهم صورهم التى فى أذهاننا" وخلصت الدراسة إلى نتائج كان أهمها:

أن العرب قد تم تقديمهم فى صورة المتخلفين ساكنى الصحراء والأشرار، والكارهين لإسرائيل المحبة للسلام، وقدمت إسرائيل على أنها الدولة الديمقراطية ذات الانتماء الغربى التى لا يهمها سوى المحافظة على أمنها بدون نوايا سيئة، فعندما كانت إسرائيل تهاجم جيرانها العرب كان ذلك يفسر على أنه غارات رد فعل.

الدراسة الثانية: كانت عن وسائل الإعلام الأمريكية وحرب عام ١٩٦٧، مستخدمة نفس أداة التحليل ونفس صحف العينة، وخلصت الدراسة إلى أن إسرائيل هى مجتمع متحضر على درجة عالية من التعليم، ومدحت قدرتها الفائقة على القتال، وأرجعت الصحف ذلك إلى أن الإسرائيلى أمين، واثق من نفسه، بينما العرب لا يمكن الوثوق بهم، فهم غير أمناء تسودهم روح التفكك.

(*) راجع إيناس محمد أبو يوسف، صورة العالم الثالث فى الصحافة الأمريكية والمصرية، ص ص ٩-١٢.

الدراسة الثالثة: وكانت عن تغطية الصحف الأمريكية للشرق الأوسط أثناء حرب ١٩٧٣، ومقارنة ذلك بتلك الصورة بعد حرب ١٩٥٦، ١٩٦٧، وخلصت الدراسة إلى انه على الرغم من أن الصورة تحولت بشكل ضئيل جداً لصالح العرب، وخاصة فى عدم وصفهم بالبدائية والتخلف بعد حرب ١٩٧٣، ركزت الصحف الأمريكية على أن إسرائيل مبررة، وترغب فى السلام، وأن الإسرائيليين أبطال مجتهدون يعتمدون على أنفسهم، وإن كان لهم بعض الصفات السيئة، إلا أنهم صادقون، غير حاسدين، واستمر وصف العرب بأنهم كاذبين، وغير جديرين بالثقة. (٦: ٩-١٠)

وفى دراسة قامت بها **نادية سالم، عام ١٩٧٨**(٥٨)، حاولت الباحثة التوصل إلى صورة العرب، والإسرائيليين فى المجلات الأمريكية فى الفترة من مارس ١٩٦٧ حتى مايو ١٩٦٨ لمعرفة مكونات الصورة قبل حرب ١٩٦٧، وأثنائها وبعدها، وكذلك الفترة من أغسطس حتى أكتوبر ١٩٧٤ لنفس الهدف، ومن خلال تحليل المضمون لتلك المجلات، توصلت الباحثة إلى أن التغيير فى التصور الأمريكى للشخصية المصرية يرتبط بالتغيرات فى النظام السياسى المصرى وتوجهاته نحو الولايات المتحدة الأمريكية. (٦: ١٠)

وفى دراسة قامت بها **سونيا عدلى عام ١٩٨٨** (٧٦)، وفيها تناولت الباحثة دور النظرية السياسية فى تقديم الأنباء من خلال تحليل مقارن بين صورة مصر فى الـ"نيويورك تايمز" والعلاقات الحكومية المصرية الأمريكية، فى فترات زمنية هى: [أزمة السويس عام ١٩٥٦، حرب ١٩٦٧، معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩] ولتحديد حجم التغيرات فى صورة مصر، وعما إذا كانت تتفق أو تختلف مع توجهات العلاقات المصرية الأمريكية، حيث قسمت طبيعة هذه العلاقات إلى: [سلبية باتجاه السلبية ومتوازنة باتجاه الإيجابية، وأخيراً إيجابية]. وحددت الباحثة عينة زمنية، هى ثلاثة أسابيع قبل الحدث،

ومثلها بعد الحدث، كما ركزت على التغطيات الإخبارية... وانتهت الدراسة إلى ثبوت صحة الفرضية، حيث ارتباط صورة مصر بالمتغيرات فى العلاقات المصرية الأمريكية. (٦: ١٣)

وفى دراسة قام بها **محمود كامل عام ١٩٨٤** (٦٧) للوقوف على صورة مصر فى الإعلام الأمريكى، ومن خلال تحليل مضمون صحيفة الـ"نيويورك تايمز" الخاص بمصر، فى إطار محاولة للإجابة على التساؤلين التاليين:

س١: كيف قدمت الـ"نيويورك تايمز" مصر كدولة، وأمة؟

س٢: هل تتمشى هذه الصورة مع طبيعة العلاقة المصرية الأمريكية؟

وانتقى الباحث ستة أشهر فى فترتين زمنيتين شهدتا تغييراً فى العلاقات المصرية الأمريكية:

الفترة الأولى: شهدت علاقة سيئة فى الفترة ١٩٦٧ حتى ١٩٦٩.

الفترة الثانية: شهدت تحسن فى العلاقات فى الفترة من ١٩٧٧ حتى ١٩٧٩.

وانتقى الباحث الأخبار والتعليقات لتحليلها، واستخدام مدى اتساع العمود كأداة للقياس، وتوصل إلى عدة نتائج كان أهمها: أن تغطية الـ"نيويورك تايمز" الأمريكية لمصر قد **تبعت السياسة الخارجية الأمريكية** سواء بالسلب أو بالإيجاب، وأن صورة مصر كدولة ظلت سائدة فى الفترتين، وإن كانت هذه المعلومات المحدودة والغير متوازنة قد ساهمت فى تقديم **مصر فى صورة نمطية مشوهة.** (٦: ١٢)

[٦] الدعوة إلى ضرورة إخضاع العالم الإسلامى:

إن العالم الإسلامى على اتساع رقعته وأهمية موقعه الجغرافى، فإنه يسعى إلى تأكيد وجوده كعالم إسلامى له هويته الخاصة به، ويرغب فى العيش مع العالم المتحضر، ولكن بعيداً عن التقليد الأعمى لأساليب الغرب فى الحياة، إنه

عالم يرفض الهيمنة من أي، ويسعى جاداً لتكريس موارده وثرواته من أجل حياة أفضل لشعوبه، دون تبديدٍ لثرواته فى صراعات سواء أكانت هذه الصراعات داخلية أم خارجية، إنه عالم يسعى لفهمْ أفضل سواء مع الغرب أو مع بعضه البعض، لمساعدة شعوبه على الحياة بطريقة أكثر تقدماً والمساهمة فى إثراء البشرية. (إنترنت: ٨١)

والإخضاع هنا له صور شتى تتعدد بتعدد المواقف، ونوعية الدولة، وفى هذا السياق نسمع تصريح الرئيس الأمريكى "بوش" الابن يقول "إن العالم الإسلامى مصدر الشر كله، ومادامت بعض الدول الإسلامية لم تخضع للإدارة الأمريكية، فإن الولايات المتحدة ستقوم بنفسها بتأديب هذه الدول"، وقد يكون الإخضاع بالحرب المعلنة الشرسة كما حدث فى أفغانستان، وقد يكون بالتدخل فى شئون الدولة، وهناك محاولات شديدة تحاول فيها أمريكا التدخل فى شئون الدول الإسلامية، مما يعكس الصلف والغرور الأمريكى واستضعافها للمسلمين، فعلى سبيل المثال يطالب "توماس فريدمان" عبر نيويورك تايمز، الوزير السعودى للشئون الدينية، بإصلاح التعليم الدينى، والكويت بتشديد الرقابة على الجمعيات الخيرية الإسلامية، وكذلك مطالبة "فريد زكريا"، السعودية بوقف دعم الإسلام والسيطرة على الزعماء الدينيين والتعليميين، ومطالبة قطر بظهور الإسلاميين المعتدلين على قناة الجزيرة، ومطالبة مصر بتوقف الصحافة عن معارضة أمريكا، وعدم تمجيد العمليات الاستشهادية، واشترطت على مصر لكى تتم التنمية فى صعيد مصر لابد أن يسبقها تنمية فكرية تستهدف التغيير الثقافى والفكرى لأبناء الصعيد، وتغيير الخطاب الدينى (٥٤: ٣)، كل هذا من منطلق ضرورة الضغط على مصر لأنها روح الثقافة فى العالم العربى، والرائدة فى الأمة العربية.

❖ وما هذه التصريحات وتلك التهديدات، إلا خوفا من الإسلام فى حد ذاته كعقيدة قوية عظيمة، رغم ضعف المسلمين، إنه الحقد على المسلمين وعقيدتهم السمحة والغيرة منهم، وصدق قول الله تعالى فيهم: ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ...﴾ [النساء: ٨٩].

****